



الموازنة بين المتنبي والجواهري في الكرامة الإنسانية

د. سودابه مظفرى

الأستاذة المساعدة لفرع اللغة العربية بجامعة" تربيت معلّم (طهران و كرج)"إيرانية

mozaffari_arabic@yahoo.com

الملخص

إنّ الكرامة عنوان الإنسان، خلقه البارئ مكرّمًا بقوله: "و لقد كرّمنا بنى آدمَ و حملناهم فى البرّ و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً" (الأسراء / 70) و بهذا جعله الله أشرف خلقه. كثير من الآيات القرآنية و الأحاديث الواردة يؤكّد على الكرامة الفطرية و لزوم الدفاع عنها. فلا بدّ للإنسان أن يدافع عن هذه الدرّة الثمينة المودّعة فى وجوده و يصونها من اعتداء اللّئام عليها و إن ينته إلى العسر فى الحياة الدنيوية أو الهلاك.

إنّ الإحفاظ بالعزّة و الكرامة الإنسانية له صدى فى الأدب العربى منذ الجاهلية حتى الآن؛ و من أنّ للشعر تأثيراً أقوى و أعمق، فهذا العنوان فى الأشعار العربية أكثر تلونا. بين الشعراء العرب شاعران يهتمّان كثيرا بالكرامة الإنسانية و اصطبغ أعظم أبياتهما بهذه الصبغة الإلهية، يصوّرانها بأروع صور فى أشعارهما كأنهما يناديان فى كلّ لفظة بهذه الجوهرة الإنسانية و الإحفاظ بها؛ ألا و هما المتنبيّان: المتنبيّ العباسيّ (أبو الطيّب) و المتنبيّ المعاصر (محمّد مهدي الجواهري).

الغرض الأساسيّ من هذه الدّراسة هو الموازنة بين الشاعرين فى العناية بهذه البذرة النفيسة المنسيّة فى وجود الإنسان. و فائدة هذه الدّراسة للباحثين عن الأدب العربى و لاسيّما شعره هى العناية بالعلاقة الوثيقة بين العصور الأدبية المختلفة و تأثر المتأخّرين بالمتقدّمين؛ كما أنّ الجواهري تأثر بالمتنبيّ فى كثير من خصائص شعره و سلوكه، منها إشارات بالكرامة الإنسانية و تصويرها قولاً و فعلاً و تذكيرها المخاطبين، فأصبحت خالدين فى الأدب العربى.

الكلمات الدلّيلية: الكرامة، المتنبيّ، الجواهري، المقارنة، التمرد، الغربة، الفخر، العتاب



Comparison between Motanabbi and Javaheri about human generosity
Soodabeh Mozaffari
Assistant professor of Tarbiat Moallem University of Tehran

Abstract

Generosity is the human named sign that God has created him on the basis of them as says; 'Indeed we honored the children of Adam provided them with means of transportation on land and sea; and also provided them lawful and pure sustenance and preferred them above many of our creatures' (Esra, 70). In this manner put him the best nobleman of his creatures.

The keeping of human generosity has been reflected in arabic literature since arabs before Mohammad hitherto. But in arabic literature there are two distinguished poets who have special attention to human generosity. therefore the chief part of their poetries belong to this divine scent. They describe the generosity in best kind to these poetries. They are two motanabbies; one of them is Abbasi period Motanabbi (Abolttayeb) and other one is the contemporary Motanabbi (Mohammad Mahdi Javaheri).

The basic purpose of this essay is the comparison between two poets in two different periods who served to the human precious nature. The profit of this essay is attention deep relation between different periods of literature and effect of recent literary men from predecessors. Just as Javaheri in the numerous of literature specifications keeping to the auditor of his period influenced from Motanabbi.

KeyWords; Generosity, Mutanabbi, Javaheri, Comparison, Resistance, Being away from, Prid, Reproach.

المقدمة

إنّ للجواهري في حياته نموذجاً بارزاً كان مثلاً حقيقياً له، ألا وهو المتنبي الذي كان يحفظ ديوانه وهو صبيّ يلعب في الأزقة، والذي تأثر الجواهري بشخصيته وجبروته وعظمة اللفظة عنده؛ حتى يقول عنه الشاعر المعاصر الفقيه محمود درويش: "الجواهري شاعر عباسيّ يحيا في القرن العشرين" (الجواهري و سيمفونية.../46) فلاغرو أن يُطلق عليه "متنبي العصر" (نفسه/62) ولهذا يقول عنهما الشاعر المعاصر بدر شاكر السياب: "لا متنبي بعد المتنبي إلا الجواهري". (الجواهري... مسيرة قرن/392) هل كان بين الشعارين تقارب أو بينهما عناصر مشتركة لهذا



التعبير، كما يعبر الجواهري نفسه عن بعض المشتركات بينه وبين المنتبّي بقوله: "حتّى المنتبّي كابد ما كابدت، و تحمّل ما تحمّلت، و تهجّر ما تهجّرت، و يشرّد بما شرّدت..." (نفسه /128) نعم كان البعد الزمني بينهما ثلاثة عشر قرناً، ولكن هذا لم يكن سبباً للتّباعد و الانفصال المطلق بينهما؛ بل كانت عناصر التّشابه و التقارب بين الشّاعرين معجبة:

الأول: إنّ كليهما من بلدة واحدة يبعد خمسة أميال فقط. فمولد المنتبّي هو الكوفة و الجواهري من النجف. مولدهما في موقع بين الطّبيعتين المتعارضتين هما صحراء نجد و بساتين الفرات. الثاني: نشأ الشّاعران في الفقر الذي يعتبر رذيلة عندهما؛ كما كان والد المنتبّي سقّاء في الكوفة، و وصل الأمر بأهل بيت الجواهري إلي أن يقول: "وصل الأمر بنا أن نبيع أثاث بيتنا تباعاً... و بقينا علي الحصيرة كما كنّا قبل ذلك". (نفسه /159)

الثالث: كلاهما تعانيان عن الغربة- بنوعيهما الدّاخلية و الخارجيّة- بسبب اعتقادهما. فالمنتبّي تغرّب باعتقاداته القرمطيّة، و الجواهري عاش أعظم حياته غريباً بموقفه الخاصّ من طبقة الحكّام و اعتقاداته السياسيّة و الإجماعيّة.

الرّابع: إنّهما اشتغلا قسماً من حياتهما في البلاط و اشتركا في السّلطة من خلال الحاكم. إنّ المنتبّي بقي مدّة من عمره مع سيف الدّولة (أمير حلب) و لم ينفصل منه حتّى في المواقع الشّديدة و الحروب العديدة. كما عاش الجواهري مقطوعاً من عمره عند الملك الفيصل. و كان لهذا الحضور أثر كبير في حياتهما الأدبيّة.

الخامس: من المشتركات بين الشّاعرين كثرة الأسفار؛ كان بعضها باختيار و بعض آخر اضطراراً. السادس: ظاهرة امتازت اشعار الشّاعرين بها هي تأثير البيئة العامّة في أشعارهما، حتّى أشبهت بمرآة تتعكس عليها أحوال الناس في عصرهما؛ ذلك إلي ما يظهر في خلال أشعارهما من تأثير البيئة الخاصّة فضلاً عن صورة نفسيهما الفلقة و مزاجهما الحادّة و أخلاقهما الصارمة و أنفتها إلي درجة التعالي و روحهما المتمرّدة و الرّافضة و صراحتها العديمة النّظير.

و أخيراً علينا أن نشير إلي أنّ الجواهري يعبّد هذا الأمر إعادة التّاريخ بقوله: "و يا للعجب، فكم من مرّة يعيد التّاريخ نفسه، فلقد مثل المنتبّي العظيم وأنا في موقفٍ هذا". (مذكراتي /271/1) ألا تكتفي هذه العناصر الموافقة للدّلالة علي التّشابه و التقارب بين الشّاعرين أحدهما عبّاسي و الآخر معاصر؛ كأنّهما يعيشان في عصر واحد؟

أمّا بعد المعرفة بكلّ هذه المشتركات نصل إلي الموافقة بين الشّاعرين خلقاً و تعامللاً. ممّا يجدر الإشارة به من هذه الوجوه المشتركة هو الدّفاع عن الكرامة الدّاتيّة عند الإنسان. هذا الأمر الذي يؤكّد



الشاعران عليه من خلال أشعارهما كثيراً و يهتمان به أكثر من كل شيء آخر في حياتهما. كما يعتبرها المنتبى كل حياة الإنسان و يعتقد أنّ غثاثة حياة الإنسان في غثاثة كرامتها و تفاهتها بقوله:
غثاثة عيشي أن تغثّ كرامتي و ليس بغثّ أن تغثّ المآكل

(المنتبى 188/3)

المنتبى هو الذي لا يمدح إلا من يحفظ كرامته و لا يهضم حقّه من العزّة الإنسانيّة؛ كما نري كثيراً من مدائحه لأمير حلب سيف الدولة ، لأنّه قام باحتفاظ الكرامة و العزّة للشاعر، و لم يمنح الفرصة للحساد و الواشين ضدّ أبي الطيّب. وعندما يطلب الشاعر من الأمير الأيكلّفه بتقبيل الأرض أمامه، لم يخضع سيف الدولة قبال إرادته فحسب، بل أفاض عليه النعمات و الهبات الوافرة. أمّا من زاوية أخرى نري ترك الشاعر العباسي أمير حلب إذا اجتمع عليه حسّاده و خصومه عند الأمير، حتّى إذا ضرب ابن خالويه وجه الشاعر و لم يقم الأمير بانتصاره قولاً و لا عملاً، غضب أبو الطيّب فأمر دمشق بعد ترك حلب (أدباء 2/ص319)، وعندما دخل الكوفة أرسل سيف الدولة إليه كتاباً بخطّ يده سائلاً المسير إليه بحلب (نفسه/322) فأجابته الشاعر بقصيدة مطلعها:

فهمتُ الكتابَ أبرّ الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب

(نفسه/319)

إنّه لم يهن بالأمير قولاً لما حفظ الأمير كرامته في السابق، ولكنّه من جانب آخر لم يخضع تماماً لإرادته بأن يسير إليه بحلب. بعدما رأى ذلك الجفاف منه عند خصومه لم تأذن له كرامة نفسه أن يرجع إليه مرّة أخرى. ألم يكن هذا دليلاً قوياً علي اهتمام الشاعر بعزّة نفسه في كل حال؟

كما حاله عند أمير مصر، عندما شعر شعوراً قوياً بإهانة كرامته في مصر بعدما ماظله كافور في وعوده، أصبح كأنّه جريح لا يستطيع أن يقبض علي السيف و لا أن يببطش به و لا يملك إلا أن يئنّ أنين العاجز. عندما يريد الأمير المصري أن يمدحه قام بمدحه في الظاهر، ولكنّه لم ينتزل من كرامته بهذا المدح. فإذا كان محبّاً يجتهد أن يكون إزاء حبه محبوباً؛ يقول في بائيته مخاطباً أمير مصر:

أنت الحبيبُ ولكنّي أعوذ به أن أكونَ محبّاً غيرَ محبوب

(نفسه/186)

و هذا هو الجواهري الذي يقول عن الكرامة: "أيّ تعب أشدّ من تعب الكرامة". (مذكراتي/277/1) هو شاعر يصبر علي كلّ معاناة و ضيم في حياته ولكنّه لا يصبر علي كرامته و مساسها و اللّطمة عليها. كما أنّ مساس الكرامة عنده أشدّ من أيّ أمر آخر. إنّه يزود عن هذه الخصيصة الإنسانيّة في أشعاره مراراً و يدعو الناس إلي حفظها و إعزازها طوال الحياة، فيقول: " في داخلي كثير



من العناصر المتفجرة، إعتزازي بكرامتي، الثقة بالنفس التي تصل إلي الغرور أحياناً، كل هذا دمّرت جزءاً من حياتي...". (الجواهري، جدل الشعر / 7 ، أزمة المواطنة / 115)
هذا الشاعر المعاصر يحبّ الملك الفيصل الأول و يمدحه في أبيات، لا لشيء إلا لأنه قام بتجديد كرامته التي افتقدت عنده في الطفولة و الصباوة بانتخابه موظفاً في ديوان وزارة المعارف، فيصف ما يخلج في نفسه أمام هذا العمل العظيم و هذا الرجل الذي استردّ كرامته بقوله: "ففي تلك الساعة أحسست أنّ الأرض تهتزّ تحتي فرحاً، لا حباً بمال و جاه أو بمنصب؛ بل شعوراً بالكرامة. ها هو الرجل الذي كان صاحب اليد الأولي في استرداد كرامتي التي أرادت الذئاب تجريحها". (مذكراتي/185)

الكرامة ذاتية الإنسان

إنّ الكرامة ذاتي عندك إنسان موهبة إلهية إليه لا تكون اكتسابية. إنّ المتنبّي يؤكّد علي هذا الواقع بقوله: "أفعال من تلد الكرام كريمة" (المتنبّي/4/132) فهو يقول: من كرمت مناسبه كرمت أفعاله. كما أنّه علي أنّ الهوان و الخفة

ذاتي. إن كان أنسان ذليلاً في نفسه يقبل المذلة و المهانة بسهولة و لا يتألّم بتحقيقه من الآخرين و لاسيّما الأراذل و اللئام منهم. فهو كميت لا شعور له كما لا يحسّ أي ألم و وجع بجسمه. فيقول:
مَنْ يَهْنُ يسهل الهوانُ عليه
ما لجرحٍ بميتٍ إيلام

(نفسه/4/95)

إنّ المتنبّي لا يخصّ العزّ بالإنسان، بل يعتقد عسى أن تثبت أرض عزّة و شرافة، فهذه الأرض أطيب من كلّ الأقاليم و الأراضي بقوله:

و كلّ امرئٍ يُولي الجميلَ محبّب
و كلّ مكانٍ يُنبت العزّ طيب

(نفسه/1/193)

ربّما يريد الشاعر بالأرض أرض وجود الإنسان الذي كانت فيه للكرامة جذور عميقة و بذور قديمة تنشأ منه كرامات و أصحابها.

لم يكنف أبو الطيّب بكرامة نفسه فحسب، بل كان شديد الغيرة بأشعاره؛ كما إذا اجتمع الحساد عليه عند سيف الدولة لينغصوا عيشه ، حدّر الشاعر سيف الدولة بقوله:

أذا الجود أعطى الناس ما أنت مالك
و لا تُعطيّن الناس ما أنا قائل

(نفسه/3/125)



فالشاعر يطلب من الأمير أن لا يهدي الناس من أشعاره الثمينة، بل يحفظها كرامة يؤمن بها لهذه الكلمات و الأبيات.

أكثر أبيات محمد مهدي الجواهري مصبوغ بصبغة العزة و الكرامة يعتبرها ذاتية أصيلة ضاربة جذورها في أعماق وجود الإنسان:

أمي غدتني الملهبا
و أبي تخلف أن يجو
و درجتُ دربهما و طا
ت و ضرعها حفل لبون
ع و لا يذلّ، و لا يهون
لت بي علي الدرب السنون

(الجواهري 7/ص249)

والد الجواهري كان كريم النفس، ما عمل حتى في شدة فقر العائلة بجمع الصدقات و قبول التبركات، هذا العمل الذي كان من عادة سائر علماء الدين آنذاك. يرضي لفقره و عدم تطاول اليدين أمام الآخرين و عدم الحرص بما لا يكون له. كما يقال عن سجاياه: "هو... ما شئت من غزارة فضل و علم و كرم و حلم و سجاجة أخلاق و طيب أعراق و عزة نفس و علو همة و...". (مقدمة ديوان الجواهري 31/1)

أكرامة في النضال علي الظلم

إنّ المنتبّي مذ عرف نفسه يتمرد بلسانه و قلمه و قدمه علي كل جور و استكبار في المجتمع الإنساني، و لا يصبر علي الظالمين و المستكبرين. لا يكون هذا إلا أثرا واضحا من اهتمامه بكرامة وجود الإنسان و نضاله ضدّ أرباب الجور. و حضوره في المعركة بين الحقّ و الباطل ينشأ من هذا الشعور القوي؛ كما يفضل المجاهدة بالقدم و الإقدام على النضال قلما و لسانا و هذا حقيقة المجد، فيقول:

حتى رجعتُ و أقلامى قوائلُ لي
المجدُ للسيف ليس المجدُ للقلم

(المنتبّي 4/161)

هو الذي يؤمن بأنّ الذي لا ينهض علي الظلمة لا يلبق بالمجد و الكرامة. يخاطب نفسه:

إن لم أدرك علي الأرماع سائلة
فلا دعيتُ ابنَ أمّ المجد و الكرم

(نفسه 4/44)

فالشاعر يري العزة في النضال المستمرّ ضدّ كلّ ظلم دون أن يحدّ في مكان أو زمان خاصّ. و يؤكّد علي هذا في بيت آخر:



فاطلب العزّ في لظي و ذر الذّ لّ ولو كان في جنان الخلود

(نفسه/1/327)

إنه يفضل المجد و الشرف عند المصاعب و في بحبوحة اشتعال نيران المرارات و و يرجح إقبال الحوادث علي المذلة حين الترف و التتعم .

كما يعدّ الشاعر العزّة في عداد الآلات الحربية و يجمع بينهما في مكان واحد. لا يكون أيّ شرف مجرداً عن النضال منفصلاً عن المعارك:

و إذا المكارم و الصّوارم و القنا و بنات أعوج كلّ شيء يجمع

(نفسه/2/277)

إنّ الكرامة من أنفس الشيم المودعة عند الإنسان. كما يحارب الإنسان لحفظ كلّ نفيس عنده لا يريد أن يقع في أيدي المتجاوزين، فأعلي منه يجب عليه المناضلة لإبقاء المكرمة الإلهية العديمة النظير خلق لها.

كذلك نراه لا يجمع بين الترف و اللّهو و بين المجد و الكرامة؛ بل يؤكّد علي حقيقة المجد التي تبدو عند مواجهة الإنسان مع الأعباء من الحياة، و حضوره في ساحة المحاربة ضدّ كلّ ما يتناقض الإنسانية و الكمال المطلوب الإلهي، فيقول:

ولاتحسبنّ المجد زقاً و قينة فما المجد إلا السيّف و الفتكة البكر

(نفسه/146)

هذا لا يعني أنّ المجد يناقض الرّاحة و الأمن؛ بل بديهي أنّ كلّ إنسان يحبّ الرّاحة و اللذّة، و حياته ممزوجة من الأفراح و الأتراح، لاتتحصّر بالهموم و الأحزان و النوائب. كلّ ما خلق الله لتمتّع الخلق في الدارين؛ و هذا حقّ مشروع لكلّ المخلوقات. ولكن عندما كان الإنسان مهضوم الحقّ مسلوب الكرامة لا يلبق به الطرب و الإنحياد قبال الظلم و الإغارة، و الذي يقتحم المعارك لإحقاق ما من حقّ الإنسان و يطلب الوصول إلي العزّة و الشرف، لا يريد إلاّ تعبيد الطّريق لراحة الإنسان و أمنه المطلوب.

عش عزيزاً أو متّ و أنت كريم بين طعن القنا و خفق البنود

(نفسه/1/326)

يرسم المنتبّي أمام الأنسان الممجدّ و المكرّم طريقين:

إمّا يعيش عيشاً عزيزاً حافظاً لشرفه و دافعاً عن كرامته. و إن لم يكن السبيل معبداً للحياة الماجدة السّامية، فلا بدّ له أن يقوم بتمهيد هذا الطّريق و تيسير الأمكانيات بكلّ وجه. و أن كان مسلوب الحق



فعلية المجاهدة ضدّ المغيرين وإن يُؤدّ هذا الأمر إلي موته فلا يموت إلا كريماً شريفاً . كما يشير إلي هذا في بيت آخر:

و إلا تمّت تحت السيوف مكرماً تمّت و تقاس الذلّ غير مكرّم

(نفسه 4/127)

إنّ الإنسان إذا لم يحتفظ عزّته في الحياة ولم ينهض لاكتساب مجده المسلوب و لم ينجح بالموت في سبيل أخذ كرامته، لاسبيل له إلا أن يعيش ذليلاً يعاني هواناً و خضوعاً أمام الظلمة و اللّثام. و حينئذٍ لا يسمّي عيشه بالحياة بل هو ميّت. كما أنّ الموت في الجهاد للكرامة فهو الحياة الباقية:

فموتي في الوغي عيشي لأنّي رأيت العيش في إرب النفوس

(نفسه 2/192)

هو الذي يؤمن بأنّ شرافة الإنسان مازالت مهدّدة بالسلب و الأذي و لا يسلم مجد الإنسان من كلّ خطر يهدّده إلا بالقيام ضدّ المتعرّضين شجاعاً مقتدراً بكلّ قوى و ألا يخاف من الموت في سبيل إحياء الكرامة:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي حتّي يُراق علي جوانبه الدّم

(نفسه 4/126)

أمّا الحال كيف بالنسبة للجواهري صنو المتنبّي؟ هل هذا الشّاعر المعاصر أيضاً يعتقد بأنّ للكرامة الأنسانيّة قيمة ينبغي للإنسان أن يناضل لأجله و يقضي حياته في المعارك؟ نعم، إنّ الجواهري يهتمّ بهذه الميزة الإنسانيّة كثيراً ، بل يحسبها من العناصر المؤثّرة في إصالة الإنسان يجب الدفاع عنها بكلّ ما له من النعمات و الرّقاهايات في الدّنيا. إنّه يسهم بقلمه و شعره في حركات النّضال و التحرّريّ في العراق و سائر الدّول العربيّة و يدافع فيها عن العزّة و الكرامة الذاتيّة، بل لا يكتفي بالقول دون العمل في هذا المستوى، كثيراً ما يتعاني من التّعسّفات و الخصومات المختلفة التي يمهدّها الحساد و الأعداء في حياته.

فهو شاعر ملتزم لا يقبل المذلة و الهوان في أيّ صورة من صورها المتلوتة حال أنّه يستقبل كلّ الخطوب في سبيل الوصول إلي الحريّة و حفظ المجد و الشرافة الإنسانيّة:

بطاق تقلّب الأيّام فينا و أمّا أن نذلّ فلا يُطاق

(الجواهري 1/343)



فلايرضي بالذلّ و لايببت علي الضيمّ العزيزُ الأبّي، ولو كان الأمر غير ذلك لهانَ احتمالُ المذلّة و الخفّة و الصبر عليها، أمّا المذلّة فلايرضح لها إلاّ الخاضعُ الوضيع.

كما عرّف المتنبّي المجد فيه اعتداد بالشجاعة في ساحة القتال لا فاصلَ بين المجد و النضال، فالجواهرى يعتبر المجد صنوا للإقتحام في المعركة و ما يتبعها من المصاعب و العقبات، فيشد:

ما المجد كأسٌ تجتلي
المجد يخنق بين أو
...المجد ليس رضا الوزي
المجد صنوٌ للذما
—ها للسقا يدُ المدير
تارٍ و ولدانٍ و حور
—رو لا مصاقبة السقير
ء و للسجون و للقبور

(نفسه/4/66)

هو لا يخوض القتال فيضرب أعناق الملوك بالسيف كسلفه أبى الطيب، ولكن لا يكون بمعزل عمّا يجرى في المجتمع الإنسانى من المناضلات. لذا يصف المجد كما يصفه المتنبّي. و يصور لنا تأثير المناضلة ضدّ الظلم و الإستعباد للوصول إلى المكرمة و العزّة المتعالية بوضوح فى قصيدة" أخی جعفر"؛ فيقول:

تقّم، لعنت أزيز الرصاص
و خضها كما خاضها الأسبقون
فإمّا إلى حيث تبدو الحياة
و إمّا إلى جدث لم يكن
و جرّب من الحظّ ما يُقسّم
و ثنّ بما افتتح الأقدم
لعينيك مكرمة تُغنم
ليفضله بيتك المظلم

(نفسه/3/260)

إنّ الشاعر يحضّ الإنسان الحرّ الشريف إلى الخوض فى المعارك، الذى ينتهى إلى إحدى الطريقتين: إمّا الوصول إلى الحياة الكرامة المطلوبة و إمّا الموت فى سبيل الهدف المقدّس، الذى هو أفضل من الحياة المظلمة المقيدة.

تفضيل الموت و الهلاك علي قبول الهوان

كلا الشاعرين يعبران عن تفضيل الهلاك علي المذلّة و يستقبلان من الموت بالعزّة و الشرف، و يصرحان نفورهما من الحياة الخفيفة الحافلة بالمهانة. يقول المتنبّي:

غير أنّ الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ و لا يلاقي الهوانا



(المتنبى 244/4)

إنّ الموت كرهه الوجه في تصوّر الإنسان و رؤيته مكروهة عنده. ربّما يرجّح بعضُ النَّاسِ أن يعيش بالمذلة علي دركه الموت. و هذا لا يكون إلاّ لكرهته من الهلاك و الخروج من الحياة الدنويّة، ولكنّ الذي لا يفكر إلاّ بالعزّة و حفظ كرامته الذاتيّة فلا يخاف من الموت و لا يكرهه، بل يفضل رؤية منظر الهلاك الكريه و الغاضب علي الحياة التي تخلو من أنفَس المودّعات الإلهيّة عنده، ويترك الخوف من الموت للمطيعين لكلّ رذيلة و الخاضعين أمام كلّ لنيم، كأنّهم شاة و أنعام:

ردي حياض الردي يا نفس و اتركي حياض خوف الردي للشاة و النعم

(نفسه/44)

هذا هو الذي خيم علي أكثر أشعار محمد مهدي الجواهري، لأنّه شديد الإهتمام بكرامة الإنسان و يري أن لا جدوي في حياة يحيها المرء مقموع الإرادة مستلب الكرامة، يُملي عليه الآخرون ما يريدون فيطيعهم. فالموت إذاً إليه أحمد و الذّ؛ فيقول:

أنا ذا أطلبُ الحمامَ بنفس
لا لشيئٍ إلاّ لأنّ المنايا
لم أخنها و عزيمةً لم تخني
في مصكّ الرّجال أعرض

(الجواهري 234/5)

فعدم خيانة الشّاعر بنفسه هو احتفاظ كرامتها و ارتفاع عزّتها، و عدم الخضوع أمام كلّ جبار عنيد يريد كلّ شيءٍ لنفسه و لأقربائه و إن كان بسلب الإرادة عن الآخرين و كبت شرافتهم.

فالرّجل عند الجواهري عنوان لا يليق به كلّ امرئ، بل الذي يعني بشيمته الإنسانيّة و يؤمن بكرامة و شرافة الإنسان التي أعطاه الله ليعيش عزيزاً غير منخفض الجناح إلاّ له:

هيّ النفسُ تأبّي أن تذلّ و تقهّرا تري الموت من صبرٍ علي الضّيم أيسرا

(نفسه/271/4)

هذه النفس هي النفس الكريمة الإلهيّة التي لاتقبل الذلّ و القهر، و لاتصبر علي الظلم و العدوان، بل الموت عندها أهون من الحياة مع احتمال الخفة و السكوت أمام الجبابرة.

النتائج المترتبة علي الإهتمام بالكرامة الذاتيّة:

إنّ العناية بالشّرافه و العزّة الإنسانيّة عند الشّاعرين متضمنة آثارا و نتائج ملحوظة أهمّها هي:

أ- التّمرد و الرّفص



تزامن ميلاد الشعاعين مع الأحداث الكثيرة في الجوانب المختلفة من الحياة الإنسانية. أنهما ترعرا في بيئة حافلة بالأضطرابات المتصلة و الفساد الشائع إجتماعياً ، سياسياً ، إقتصادياً و دينياً . كان الدم يصبغ هذه البيئة من حين إلي حين آخر؛ كما يصبغها النهب و السلب و استباحة الأعراض و الإستخفاف بقوانين الخلق و الدين. فما الحال بالنسبة لشاعر مرهف الحس، رقيق المزاج، حادّ الشعور، ملتهب العاطفة، قويّ الخيال و ذكيّ القلب عند ما يواجه عصراً بهذه الإضطرابات المختلطة إلا التمرّد و الرقص؟. كما يقول طه حسين من المنتبّي:

" إن فتانا قد عرف السخط منذ عرف نفسه، و استطاع أن يفكر في أمره شيئاً ". (من تاريخ 89/3)
النتقي الشاعران بوقائع مختلفة- أكثرها مشتركة- مثيرة التمرّد و الإعتراض طوال حياتهما في رأسها الشك في نسبهما. بالنسبة للمنتبّي نري بعض الناس أثار الشك حول أبيه و إصالته و عربيتّه. و هذا لم يكن إلا لأنّ أبا الطيّب لم يقل من أبيه شيئاً في ديوانه من مدحه أو الفخر به أو رثائه. و من زعم أنّ أباه كان سقاء في الكوفة ليضع بذلك من شأن الشاعر، كما أشار إلي هذا بعض الشعراء حين هجّاه بقوله:

أيّ فضل لشاعرٍ يطلبُ الفضل
عاش حيناً يبيعُ في الكوفةِ الماءَ
من الناسِ بكراً و عشيّاً
و حيناً يبيعُ ماءَ المحيّا
(نفسه: الهامش/ 20)

فالمنتبّي يجيب هؤلاء المشكّكين و الشامتين في نسبه و إصالته بأبيات من أروع أشعاره، فيقول

في نسبه و والده:

أنا ابنٌ من بعضه يفوقُ أبا البا
و إنّما يذكرُ الجدودَ لهم
حُث و النجلُ بعضُ من نجله
من نفروه و أنفدوا حيله
(المنتبّي 282/3)

هذا و بالنسبة للشاعر المعاصر الجواهري فبدأ أن تُغرَس بذرة التمرّد في أرض وجوده منذ الطفولة ، كان طفلاً في زىّ شيخ وقور يعتمر العمامة و يلبس الجبّة و يتحدّث بلغة الشيوخ بإرادة أبيه و رغم إرادة الشاعر نفسه. فأدّى هذا الأكره إلى رفضه الداخليّ كأنه أصبح حرّاً و انفتحت أبواب الحياة الحرّة أمامه بوفاة والده. كما كان من دوافع التمرّد و الرّفص عنده الفتنة الكبرى التي أثارها المدير (ساطع الحصري) في المدرسة العراقية التي عُيّن شاعرنا فيها معلماً - بعد وصف الشاعر مصايّفُ الشميرانات



بِعاصمة إيران - نسبة الحصري بإصالته الإيرانية و اتهمه بالشعوبية. يجيبه الجواهري أحسن إجابة فيقول:

" إنني فخورٌ بحبي لكل الشعوب... لقد غنيتُ مصايِفَ لبنان و سوريا و فلسطين، و امتدحت في شعري باريس و سواستبول و ستالينغراد و براغ،... أ فهذه شعوبية؟" (مذكراتي/163) وكما أثار الخصومة ضده حينما حيّ الشاعرُ الوزيرَ الشيعيَ لديوان المعارف (عبدالمهدي المنتكي) بقصيدة مطلعها:

حيّ الوزير و حيّ العلم و الأدبا و حيّ من أنصفَ التاريخ و الكتب

(الجواهري/391/1)

يقول عنها الجواهري: " لم يخطر ببالي قطّ، أنّها ستكون الوثيقة الأولى بيد "ساطع" و مدخلا قويا لمعركة جديدة ينتصر بها، و أن أكون أنا بالذات في هذه المعركة المفتعلة، الضحية الحارة بل كبش الفداء." (مذكراتي/139/1)

أما في المستوي الاجتماعي و السياسي دوافع كثيرة لسخط الشعارين و تمردهما على الظروف الحاكمة نكتفي بالإشارة إلى نماذج منها.

أثناء إقامة أبي الطيّب في بغداد يري من مظاهر الترف و أنواع النعيم و العبث و اللهو، فيسخط علي النظام الاجتماعي و السياسي و يتمرد علي السلطان و النظام و الأغنياء و إسرافهم في استغلال الثروة العامة المكبوتة من

جانب، ويرفض سكوت العامة و استكانتهم أمام هذا الظلم الفاحش من جانب آخر. فلاعجب منه أن يظهر سخطه

بأبيات، منها:

و دهرٌ ناسه ناسٌ صغار
وما أنا منهم بالعيش فيهم
أرانبٌ غير أنّهم ملوك
وإن كانت لهم جُنث ضخام
ولكن معدنُ الذهب الرّغام
مفتحة عيونهم نيام

(نفسه/71/4)

إنّ المنتبّي يدخل في صراع مع وضع إجتماعي لا يري فيه سوى العبودية فينادي:

إلى أيّ حين أنت في زى محرم
و إلّا تمّت تحت السيوف مكرّما
و حتّى متى في شقوة و إلى كم
تمّت و تقاس الذلّ غير مكرم

(نفسه/137/4)



"نحن مع شعر المتنبي نفاعاً دائماً ، نهترّ، نثور و نعيد المعاملة معه... نحن مع شعره في حالة تأهب و مجابهة و رفض ... و أحياناً في حالة مجاهدة و مكابدة و استنكار و استجماع قويّ للوثوب... علي عالمنا المهترئ، و قيمنا المشوهة..." (من تاريخ/73)

كلّ ما رأينا في شعر المتنبي من آثار التمردّ و السخط، نراه عند الشاعر المعاصر محمد مهدي الجواهري. إنّ التمردّ سمة كبرى في شعر الجواهري، كما يصف الشاعر هذه الخبيصة فيقول: "... أنا أتمردّ حقاً و أثورُ و أغضب، لكنني أتمردّ بالكلمة، و أثورُ بالقصيدة، و أغضب بهذا الموقف أو ذاك...". (مذكراتي/2/154) لعلّ من أبرز دوافع التمردّ و الرّفص عنده هو القيود المفروضة عليه و علي المجتمع الإنسانيّ عربياً أو غير عربيّ.

كان يواجه الجواهري الآفات و المصائب في مختلف المستويات؛ من المتديّنين الذين لا يعرفون من الدين إلا اسمه و من القرآن إلا رسمه، و السّياسيين الذين جاءت بهم الدّبابات أو القوى الخبيّة لهذا الكوكب المسكين. كان يقف أمام جاهليّة وثنيّة تبنى و تتحت أصنامها بأيديها ثمّ تعبدها. إنّ كان عالماً بما يحدث لهذا الشعب الذي "سحق الزّمان رؤوسه فترأست أذنايه" سياسياً ، دينياً و أدباً (القصب/50)؛ فغير بعيد منه أن ينادى:

في ذمّة الشّعرا ما ألقى و أعظمه
... لو في يدي لحبست الغيث عن وطن
إني أغني لأصنام و أحجار
مستسلم و قطعت السلسل الجاري

(نفسه/1/429)

إنّ معرفة الشاعر نفسه مدخل لوعي الآخرين. كما هو لا يريد تضييع الآخرين هذه الكرامة ، يدعو الناس إلى معرفة شرافتهم الذاتيّة و الإقدام إلي رفض تضييعها بيد المستعبدين و أصحاب السّلطان و الثّروة. عندما يري الناس منخفضين واضعي أجنحتهم للأقوياء يتمردّ عليهم كما يتمردّ و يسخط علي الجائرين و الظّلمة:

قالوا سكتّ و أنت أفضع ملهب
... لكن وجدت سلاحهم في عطلة
وعى الجموع لزندها قدّاح
فرميت في قعر الجحيم سلاحي

(الجواهري/3/132)



من ميزات شعر الجواهري عولمته. لا يكون ردّ فعله أمام الظلم و النهب مختصاً ببلده ، بل كثير من أشعاره موجّهة إلي الآخرين من العرب و غيره خارج حدود وطنه يدعوهم إلي ردّ الظلم و رفض الظلمة. يقول خطاباً " فلسطين " المحتلّة و شعبها المضطهد:

و بالمظالم رُدّي عنك مظلمة لا، فأحقرُ مَنْ في الكون مَنْ ظلماً

(نفسه/474)

من أنّ الإجتتاب من الجور و المقابلة ضدّ أرباب الإستكبار من شيمة الجواهري المتميّزة، فهو يجتتاب كلّ أرض و يلتقي بكلّ مجتمع إنسانيّ فيحضّ المظلوم بردّ الظلم و النضال علي أصحابه. إنّهُ يصرّح بتمردّه ضدّ كلّ المعتدّين بحقوق الإنسان، من جملتهم آنذاك بعض أدياء الدّين الذين اتّخذوا الدّين وسيلة لتحقيق غاياتهم. لا يستقرّ الشاعر عليه فيرفض أعمالهم و نيّاتهم و يصيح عليهم بصوت عال:

و ما الدّينُ إلاّ آلة يشهرونها إلي غرضٍ يقضونه و أداة

(نفسه/468)

و يلقي المسئوليّة علي المصلحين بقوله:

و من عجب أنّ الذين تكفّلوا بإنقاذ أهليّه هم العثرات

(نفسه/467)

كما يندّد منعهم تعلّم البنات و يعتبره احتقاراً للرجال أكثر من النساء، فيقول:

إنكم باحتقاركم النساء اليو م أوسعتم الرجال احتقاراً

(نفسه/463)

إنّ التّمرد علي الدّين صورة من صور التّمرد علي القيم الحاكمة علي المجتمع، و إن كانت هذه القيم بالية منسوخة تصير سبب فتور المجتمع، لا ينهض بحريّته و حقّه و الدّفاع عن كرامته. هذان الشاعران هما الذّان ميّز شيئاً من التّمرد أكثرَ مواقفهما لشدّة إبانتهما و تشامخهما الذي أحال شخصهما إلي بطلين أسطوريّين يمثّلان الإرادة العربيّة و الشموخ و القيم العربيّة بل الإنسانية في عصر قلّ فيه هذه المزايا و السجايا الأخلاقية.

ب. الشّعور بالعربية



إنّ الذي يدرك كرامة ذاته و بالتالي حريته الإلهية، عندما يقع في مجتمع يعدم هذا الدّرك و يغفل عن قيمته الإنسانية و شرف وجوده يستغلّ المستبدّون هذه العقلة فيستعبدون الناس، يشعر بالغبّة بين هذا الشعب المهضوم الحق. و حينما يري أغلال العبوديّة تكبله يضيق بالوطن ذرعا حتّي يستحيل وطنه سجنًا يزجّ فيه من لا جريرة له إلاّ النّزع و إظهار كرامته الإلهية؛ فلا بدّ له أن يري نفسه غريباً في وطنه. كما يقول بعض علماء معرفة الرّوح عن هذا النّوع من الغربة بأنّها: "شعور الفرد بأنّ المجتمع و السّلطة لا يحسان به و لا قيمة له في ذلك المجتمع". (أزمة المواطنة/271) و من أنّ الشعراء بين أفراد الشعب لهم أحاسيس دقيقة و مشاعر ظريفة ربّما يدركون هذا الأمر قبل الآخرين، فلا يصبرون علي سكوت الإنسان حين استلاب حقّهم من الشرافة و الحرّية و يصيحون بأعلي أصواتهم طالبي استرداد هذه الموهوبة الإلهية. من هنا تنشأ الغربة و يقع التّصادم بين العالمين المتناقضين: عالم معلوم متكرّر عند كلّ الناس يتعودون علي الحياة فيه، و عالم آخر مجهول عند الناس أغلبهم غير مكرور، ولكنّ الشعراء يرونه بأعينهم البصيرة المحدقة بكلّ جماله و عظمته و برائته يصورونه و يحلمون به و يدعون الآخرين إليه. في صدر هؤلاء الشعراء في العصر العبّاسي هو المتنبّي و في العصر الحاضر هو الجواهري. إنّهما شاعران لا كالشعراء، غريبان في الناس، غريبان بين الشعراء و غريبان في العصر. إنّهما ابتليا بالغربة لأجل الإنسان و مكانته الباسقة فحسب، كما يقول أدونيس: " لأحبّ الغربة ولكن لا يهمني البيت العائليّ أو الوطن بحدّ ذاته، يهمني الإنسان لا المكان" (الجواهري، رحلة الشعر/180). إنّ المتنبّي كان كثير الإهتمام بحريته و عزّته، يهرب من الأرض التي أصبحت سجنًا له بتضييع حقّه فيها، يعتكف من أبناء وطنه الذين يعرفون هذا الحق ولكنهم لا يدافعون عنه أمام الغاصبين. فلذا يشعر الشاعر غربة داخلية و إن عاش في وطنه، فينادي:

وهكذا كنتُ في أهلي و في وطني
إنّ النّفيسَ غريب حيثما كانا

(المتنبّي/4/226)

فالشاعر يؤمن بكرامة نفسه و شرافتها، فيتحدّث عن نفاسة شخصيته لا يدركها الآخرون و ربّما لا يلبق بها الغافلون؛ فيشعر بالغربة أينما يتوجّه.

إنّ المتنبّي كان غريب الجسد بين الفرس، كما يعرب عن غربته في بلاد فارس فيقول:

مغانى الشعب طيباً فى المغانى
بمنزلة الرّبيع من الزّمان
ولكنّ الفتى العربىّ فيها
غريب الوجه و اليد و اللسان

(نفسه/254-255)



و هذه الغربية لم تكن عجيبة ؛ ولكنه كان غريب الروح و العقيدة بين أبناء وطنه، و هذا الشعور بالغربة من آثار معرفته بكرامة ذاته و عدم تعرف المجتمع بشخصيته، بعقيدته و بفكرته؛ علي هذا يقول في زحلة أو نخلة أو نحلة- باختلاف الروايات- و هي قرية من قرى بعلبك في لبنان:

ما مَّقامي بأرض نخلة إلا
كَمقام المسيح بين اليهود
...أنا في أمة تداركها الله
له غريب كصالح في ثمود

(نفسه 324/1 و 328)

و يخاطب نفسه مؤكداً علي هذه الغربية المرأة:

أنت الغربية في زمانِ أهله
وُلدت مكارمهم لغير تمام

(نفسه 10/4)

من أناشيد الكبرياء التي فيها تعبير عن استحقاق الشاعر للعظمة و شعوره بالشرف الإنساني هو الذي كان سبب تغربه، قصيدة قالها بعد موت جدته لأمه:

لئن لذَّ يومُ الشامتين بيومها
تغربَ لا مستعظماً غيرَ نفسه
و لا سالكاً إلا فؤادَ عِجاجة
فقد وُلدت مَنِّي لآنافهم رَغما
و لا قابلاً إلا لخالقه حُكما
و لا واجداً إلا لمكرمة طعما

(نفسه/108)

فهو يقول: ولدت جدتي مني رجلاً تغرب عن بلاده، لأنه لايعتبر غير نفسه عظيماً، فأراد أن يغادر الذين كانوا يتعظّمون عليه بغير استحقاق و لايقبل حكم أحد عليه إلا الذي خلقه.

إنّ البحث عن غربة الجواهري مفصل لا يحويه هذا الموجز. تلك الغربية التي يراد بها فكرية باطنية يعيش الشاعر في بطن بلاده يشعر غربة بعيدة في مشاعره و أفكاره، والتي يصورها الشاعر المعاصر أدونيس بقوله: "تبدو حياة الجواهري الذي عاش معظم حياته في الغربية كمثل شلال من الصور البهية الفاجعة... (الجواهري، رحلة الشعر/180). لجواهري هو الذي يصرّح بقوله:

إنّا لنخفق في الأضلاع غربتنا
معذبون و جنّاتُ النعم بنا
و إن تنزّرت علي أحداقنا حرقا
و عاطشون و نمري الجونة الغدقا

(الجواهري 324/3)



إنه يشبه غربته و هو في وطنه بإحاطته بالجنات الحافلة بالنعمة الوفيرة حال أنه لا يشعر بلذة من هذه النعمات كلها. كما يشبهها بعطشه حين كان ينابيع الماء بيده لا يرتوي به. يؤكد علي هذه المرارة و الشدة في بيت آخر:

أمرّ من الملح الأجاج مواردي
و أوجع من شوك القتادة زادي
(نفسه/440)

كان الجواهري وحيداً حين يدافع عن مبادئ إنسانية في مجتمع لا يعترف به:
خذوا بيدي هذا الغريب فإنه
لكل يدٍ مدت إليه معادي
...ماذا يريدُ الناسُ مني و إنما
لنفسي صلاحٍ أو عليّ فسادٍ
(نفسه/439 و 440)

و في بيت آخر يطلب مرافقاً عادلاً يساعده في الدفاع عن المبادئ الإنسانية:
وحيداً يحامي عن مبادئ جمّة
أ ما في البرايا مُنصف فيؤازره
(نفسه/109)

ها هو الذي يقول كثيراً عن وطنه الذي أصبح له سجناء، لا لشيء سوي طلبه الرفعة و الكمال إلي ما هو مطلوب الحق تعالي، فيصرخ:
كان بلادُ الحرّ سجناءً لمجرمٍ
و ما جرمه إلا العلي و الترفع
(نفسه/112)

و هل البحث عن العلي و الرفعة إلا من آثار العزّة الوجودية؟ و ليس من شيم العزيز الأبّي أن يرضي بالمذلة أو أن يببّيت علي الضيم. فلا بدّ أن يصبر عليه متكلفاً، و هذا هو الغربة الداخلية؛ أو هو مضطّر بالخروج من وطنه و الإستقرار بين الآخرين من بلادٍ أخرى يتعاني من الغربة الخارجية. علي أي حال يعتبر الشاعر نفسه سجيناً علي أربعة أغلالٍ لاحرية له و لاعزّة. فهو يؤثر الغربة بكل تبعاتها الفردية و الإجتماعية علي البقاء في الوطن مغلولاً مسلوب الحرية محفوفاً بالخفة و المهانة، فيقول منادياً عزّه:
والله لو أوهب الدنيا بأجمعها
ما بعثُ عزّي بذلّ المترفِ البطر

(الجواهري...مسيرة/37)

فلا مناص من الغربة عندما أحاط بالوطن الذلّ و الحقارة:
مَنْ لِناءٍ عافِ أهلاً
و صحابا و ديارا



إذ رأي الذل إسـارا

تخذ الغربية دارا

(نفسه/195)

قد غدت هذه البلاد مرتعا خصيبا للنّام و أهل الدناءة، و عذابا جماحا لذوي الكرامة الذاتيّة و طالبي الحرية و الكمال.

ج/ الفخر بالنفس

لاغرو أنّ شاعرا باسلا متكبرا طموحا جسورا متمردا عملاقا يفخر بنفسه؛ كلّ هذا يصدق بالنسبة للمتنبّي و الجواهري؛ فكيف يُستغرب منهما الفخر بالنفس، مع أنّ الفخر مركّب في طباعهما يرافقهما منذ صباهما حتّى و افتهما المنية. هذا هو المتنبّي الذي يرتفع نفسه إلي أعلى الدرجات في صباه فيقول:

أيّ عظيم

أيّ محلّ أرتقي

أتقي؟

و ما لم

و كلّ ما خلق الله

يخلق

كشعرة في

محتقر في همّتي

مفرقي

(المتنبّي/2/347)

إن لا يتمتّع إنسان من عزّة النفس و لا يهتمّ بخلفته الشريفة فلا يمكن له أن يصرخ بعلوّ همّته و يجعله أعلى من كلّ ما خلق الله و أعظم منه في صغر سنّه. فإنّ الشاعر يجعل نفسه في الثريا شرفا و خيرا بقوله:

أنا الثريا و ذان الشيب و الهرم

ما أبعد العيب و النقصان من شرفي

(نفسه/3/392)

كأنّ نفسه الكبيرة تأبى عليه أن يطري أحدا قبل أن يؤدّي لها حقّها من التعظيم و الأكرام. فهو يباهي بشجاعته و صبره و عفّته و إباءه:

و صبر جسمي علي أحداثه الحطّم

الدهرُ يعجب من حملي نوائبه

(نفسه/165)

يغتتم أبو الطيّب كلّ فرصة للمباهاة بنفسه، عندما يمدح أميرا يصدر مدحته بأبيات يقول فيها مفتخرا:



و كيف لا يُحسد امرؤٌ علم

له علي كل هامةٍ قدم ؟

(نفسه/61)

إنّ الشاعر لا يكتفي بالمفاخرة بنفسه و مكارمه فحسب، بل يظهر للمدوح قيمة شعره؛ فهو كالدرّ لا يغبن من يعطي عليه درّاً:

لك الحمدُ في الدرّ الذي لي لفظه

فإنك مُعطيّه و إنّي ناظم

(نفسه/3/413)

كما يعرض للشعراء فيرمي بهم إلي الأسفل و يحلق فوقهم مغرّداً:

و دَع كلّ صوتٍ غير صوتي فإنني

أنا الطائرُ المحكيّ و الآخرُ الصّدي

(نفسه/1/52)

قد يجمع بين الشجاعة و الحداقة في الأدب في الفخر بنفسه:

فالخيلُ و اللّيلُ و البيداءُ تعرفني

و الضربُ و الطّعنُ و القرطاسُ و القلم

(نفسه/3/390)

و:

أنا تربُّ الندى و ربّ القوافي

و سمامُ العدى و غيظُ الحسود

(نفسه/1/328)

هكذا يدور فخرالمتنبّي حول الشعور العارم بالتفوق و اللاتشابه، و حول الإحساس بكرامة نفسه و شرف وجوده ممثلاً لكل إنسان يطلب الكمال و الصعود في مدارج الرقيّ حتّي الوصول إلي أعلى المكرمات الإنسانيّة.

أمّا الجواهري فليس أقلّ من صنوه في ذكر مفاخره و التباهي بمكارمه و مناقبه. إذا كان صريح اللّهجة في ما يطلب من حقه من الشرف الذاتيّ و تعظيم نفسه النّفيسة و لا يخاف من أيّة قوّة إلاّ الله، فيتحديّ بقوّة السلطنة الحاكمة في عهد نوري السعيد مثلاً، كان موطناً نفسه علي الموت، و يقول مصرّحاً:

أنا حتقّمهم ألجُ البيوت عليهم

أغري الوليد بشتمهم و الحاجبا

أنا ذا أمامك ماثلاً متجبراً

أطأ الطّغاة بشسعٍ نعلي عازبا

(الجواهري/1/270)



هذه الجسارة و الصراحة في النضال علي المتجبرين لا يكون إلا متأثرا من اهتمام الشاعر بذاته و تكاله علي الكرامة المودعة الإلهية عنده. فحق له أن يباهي بنفسه و يظهر وجوده و عظمته في العالم الإنساني.

إذا غضب الجواهري علي الأراذل و الجائرين يستحيل إلي غضب يحق السلطة؛ كما يصبح أحيانا نارا مشتعلة تشوي وجوههم:

صببتُ علي العتاة شواظَ نار
و نفضتُ السّوادَ علي وجوه
تعودُ بها الصّفاة إلي احتراق
مصبّغة اللّحي بدمٍ مُراق

(نفسه/369)

فخر الجواهري لا ينحصر بمواقفه السياسيّة و الإجتماعيّة فحسب، بل هو يعتزّ بشاعريّته و أنّه بين الشعراء مرجوّ بنصرة الحقّ و النضال علي المعتدين، فلذا يقول:

و هل أنا إلاّ شاعرٌ يرتجونه
لنصرة الحقّ أو للظمة مُعتدى

(نفسه/15/2)

د/الندامة و عتاب النفس

لاغرو أنّ الذي يدّعي العزّة و الكرامة يسمع نداء ضميره عند المواجهة بالأخطاء و الهفوات فيخجل و يندم من عثراته، ثمّ يعزم تدارك الأخطاء الماضية بأحسن ممّا سبق. فالشاعران المنتبّي و الجواهري لا يستثنيان من هذا الحكم، لقد وقعا أحيانا في زلّات لا يقرّان عليها، بل يرجعان لتداركها بأجمل ما يمكن. فلهما أبيات تنطق من الندامة التي أثارت ألما و شكوا من أنفسهما.

هو الشاعر العباسي يتغنّى بالندم الذي يحرق قلبه بعد ما غضب عليه " بدر بن عمّار " حاكم طبريّة الذي وجد الشاعر عنده الحياة اللينة الهادئة و البيئة المثقفة الناقدة، فبلغ الرقيّ ، ففرّ أبو الطيّب منه و وقع في محنة أودى بها فيقول:

لا أفتارَ إلاّ لمن لا يُضام
ليس عزمًا ما مرّض المرء فيه
مُدرك أو مُحارب لا يُنام
ليس همًّا ما عاق عنه الظلام
ه غذاءٌ تضوى به الأجسام
و احتمال الأذى و روية جانيه

(من تاريخ 135/3)



في أول قصيدة نظمها المنتبى في مدح كافور سنة 342هـ. كان يفكر بسيف الدولة بعد مفارفته
موجّها اللوم إلى نفسه فيقول:

حبيبك قلبى قبل حبك من نأى
و أعلم أنّ البين يشكيك بعده
و قد كان غداراً فكُن أنت وافيًا
فلست فوادي إن رأيتك شاكيًا

(المنتبى 287/4 و 288)

كما أظهر ندامته في الميمية التي مدح فيها كافورا سنة 347هـ. هذه القصيدة تصور حاله النفسية بعد
خيبته عن ما وعده كافور و مماثلة كافور فيما وعده و تذكر عهد سيف الدولة:

فراق و من فارقت غير مذمّم
و أمّ و من يممت خير ميمّم

(نفسه/125)

أما الشاعر المعاصر الجواهري لقد وقع في ظروف يشعر الندامة فيها و يقوم بملامة نفسه ؛ عندما
قال قصيدة "التتويج" في مديح " فيصل الثاني" أحسّ بزلة غير مغفورة كما يعبر عنه الشاعر نفسه: "لقد
اغتصبت في تلك الزلة ضميري و ما أصعب أن يجد المرء ذو الحساسة ضميره مغتصبا... و ما
أصعب أيضا أن يجد المرء ذاته على نقيض قيمه و مبادئه...". (مذكراتي 121/2) و بعد فترة قصيرة
من الزمن قال قصيدة "كفارة و ندم" ندامة و رجوعا إلى انسجام مع نفسه و ضميره، منها:

حنانيك نفسى لا يضيّق منك جانبٌ
...وما لك من عتب على الدهر إنّما
إذا ضاق من رحب النفوس جناب
عليك لما هوتت منه عتاب

(الجواهري 180/4)

كما يظهر ندمه بعد قوله قصيدة " عميد الدار" (ديوان 391/3) صرح فيها انتهاك حقوق الناس
بأيدي المتجاوزين و المغتصبين و تدخل الأجنبي بسيادة البلاد و استقلالها. أثار ندامة الشاعر تغيير
موقف " الدكتور الونرى " السياسى فأصبح من المرشّحين لتصدّي المناصب الحكوميّة و ابتعد من مبادئه
و أصوله الإنسانية.

الدفاع عن الكرامة الذاتية أو التعالي الكاذب؟

يتصور بعض المعاندين أنّ المنتبى قد يعتزّ بنفسه إلي درجة الرّبوبيّة ولاسيما في أبياته التنبؤيّة
حيثما يقول:

ما مقامى بأرض نخلة إلاّ
كمقام المسيح بين اليهود



أنا في أمة تداركها اللـ
هـ غريبٌ كصالحٍ في ثمود
(المنتبى 324/1)

ربّما نشأ هذا الأمر من قول بعض المنتقدين الذين عابوا عليه ادّعاء النبوة في مثل هذين البيتين ولاسيما صديقه ابن جنى الذي قال عنه بأنه "سمّى المنتبى لأنه قارن نفسه في بيتين من الشعر بالمسيح بين اليهود و بصالح في ثمود" (أبو الطيّب/ 80)، ولكنّ الشاعر ينكر هذا الادّعاء كما في رسالة الغفران أنّ أبا الطيّب سئل عن حقيقة هذا اللقب فقال: "هو من النبوة أى المرتفع من الأرض" و من أقواله في تعليل لقبه: "أنا أول من تنبأ بالشعر" (نفسه/ 81) فضلا عن ذلك لم يحتو ديوان الشاعر على أى تلميح إلى ادّعاء نبوته.

فالمنتبى هو الذى لا يخضع إلاّ أمام الله و ما يأمر به، و هذا الأمر هو خصيصة للشاعر لاعتزازه و إكرام نفسه دون الذين يخفضون أجنحتهم لكلّ وضع و لئيم:

تغرّب لا مستعظماً غير نفسه
و لا قابلاً إلاّ لخالقه حكماً
(نفسه/ 108)

هو يفخر أى فخر بأن حياته رهين لإشارات خالقه.

كما بعض الظنّ علي أنّ موقف الجواهري بين الشعب موقف استكبار أو تعالٍ قد سمّاه البعض غرورا أو تعالياً ؛ (الجواهري، شاعر.. 18/0) هذا التصوّر الخاطئ لا ينشأ إلاّ من هذه الأبيات له:

أقول لنفسي إذا ضمّـها
تسامي فإنك خيرُ النفوس
و أتربها محفلٌ يزدهي
تسامي فإن جناحك لا
فإنك قيس كلّ علي ما انطوي
يقرّان إلاّ علي مُرتقي

(الجواهري 206/3)

لا ادّعاء للشاعرين في مثل هذه الأبيات أيّ علوٍ كاذب علي الناس؛ بل إشارة إلى الإهتمام بكرامة النفس و شرافة الوجود، حال أنّ الآخرين من أبناء الوطن يغفلون منها.

إنّهما يبحثان عن علو النفس و يؤمنان بأنّ الذي يجتهد للوصول إليّ الكمالات الإنسانية خلقه الله كذلك، ولا يستحقّه أن يستقرّ في الأسفل بين الذين لا يفهمون شيئاً من العزّة و الشرف؛ بل مستقرّه في القمم العالية فوق الحياة الترابية. أ لا يقول المنتبى عنه في شعره:

إذا غامرت في شرف ترؤم
فلاتقنّع بما دون النجوم
(المنتبى 119/4)



هل هذا هو الغرور و التّعالي الكاذب التي يظنّه البعض أو العناية بعزّة النفس الإنسانية؟ يشير المتنبي إليها في بيته السابق لا يريد به تشبيه نفسه بالنبي عيسى المسيح(ع) نبوة من الله، بل يعبر عن الإصالة الإنسانية عند كل إنسان فهيم بالقيم الإنسانية محارب ضدّ الجور و الإستعباد عامل برسالته الإلهية أي عدم الخضوع و الإستسلام أمام المتعرّضين بالشرافة و الحقوق الإنسانية. و الجواهري الذي كان متهمًا باستكبار من جانب البعض، يعترف بهذه الكرامة في كثير من أشعاره منها:

و إنّي... و المذلة من عُداتي يهونُ العزّة ، أنّي ذللتُ
(الجواهري 103/6)

فما أبعد المذلة و الهوان من نفس الشاعرين الكريمة، و ما أشدّ ازدجارهما من هذا الأمر الذي يعدّانه خصما ألدّ لكل إنسان شريف.

خاتمة البحث

إنّ الكرامة الموهوبة ذاتية الإنسان، لا يمكن استثناء أحد من بني آدم من هذا العطاء الإلهي. كثير من الشعراء في العصور الأدبية المختلفة اهتموا بهذا الأمر في عدّة أبيات؛ ولكن امتياز المتنبي في العصر العباسي و الجواهري في العصر الحاضر بينهم بأنهما أشادوا به في أكثر أبياتهما و سبكا في أحسن صور و أروع تشابيه.

مشاركات عديدة بين الشاعرين في حياتهما الفردية و الإجتماعية أدت إلى اقتراب الرؤية عندهما بالنسبة للكرامة الإنسانية، كأنّ الجواهري يحمل روح المتنبي في العصر الراهن. و الجذور المتفكّة بين الشاعرين لوجهة نظرهما بالعزّة

الإنسانية قد انتهت إلى النتائج الوجدانية المتّحدة عندهما، أهمّها هي:

- سمة التحدّي و التمرد
- الشّعور بالغربة (داخلية و خارجية)
- الفخر بالنفس
- الندامة و عتاب النفس



كلّ هذه الميزات منبعثة من العناية الوافرة و العميقة بالعزّة و الشرافة الموهوبة للإنسان؛ إذا وقع كلّ من الشاعرين في مجتمع يغفل عن هذه الكرامة و يخضع أمام الضيّم و سالبى حقوقه، فتمرّدا على الحاكم و المحكوم عليه كليهما. و الإحساس العميق بالكرامة في هذا المجتمع و بين أبناءه كان سببا للشّعور بالغربة الداخليّة، كما أدّى بعض العوامل و الدّوافع إلى ابتعادهما من الوطن فأحسّا بالغربة الخارجيّة. و لم يكن تبايهما إلّا بالنّفس النفيسة بالشرف الإنسانيّ. و الأخير فلامّة النّفس عندهما انبعثت من معرفة النّفس الّتي أساس معرفة الله إلى حدّ قول عليّ(ع): "من عرف نفسه فقد عرف ربّه". (نهج البلاغة/548)

بعد هذا كلّه فلاغرو أن نرى الشّاعرين ينشدان بلسان واحد و يجتازان مسلّكا واحدا رغم الفاصل الزمانيّ الذي يربو على ألف عام، و هما مفخرة للأدب العربيّ، بل الأدب الإنسانيّ.



المصادر:

- 1- القرآن الكريم
- 2- البستاني، بطرس، أدباء العرب/2، بيروت، دار نظير عبود، دون ذكر الطباعة، 1989م.
- 3- بلاشير، ريجيس، أبو الطيب المتنبي، ترجمة: الدكتور إبراهيم الكيلاني، دمشق، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، دون ذكر الطباعة، 2001م.
- 4- الجواهري، محمد مهدي، ديوان 1-7، جمع و تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي، الدكتور علي جواد الطاهر، الدكتور مهدي المخزومي و رشيد بكتاش، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، دون ذكر الطباعة، 1980م.
- 5- الجواهري، محمد مهدي، مذكراتي 1-2، بيروت- لبنان، دار المنتظر، الطبعة الأولى، 1999م.
- 6- الجواهري، خيال، الجواهري... مسيرة قرن، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، دون ذكر الطباعة، 2004م.
- 7- الجواهري، خيال، الجواهري و سيمفونية الرّحيل، دمشق، من منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دون ذكر الطباعة، 1999م.
- 8- حسين، طه، من تاريخ الأدب العربي/3، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، 1988م.
- 9- الخير، هاني، الجواهري شاعر الكلاسيكية الفخمة، سوريا- دمشق، دار و مؤسسة رسلان، الطبعة الأولى، 2007م.
- 10 - ديب، علي حسن، الجواهري: رحلة الشعر و الحياة، دمشق، مؤسسة المنارة، دون ذكر عدد الطباعة، 1425هـ. 2004م.
- 11 - زين الدين، نائر، أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر، دمشق، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، دون ذكر الطباعة، 1999م.
- 12 - شعبان، عبدالحسين، الجواهري: جدل الشعر و الحياة، بيروت- لبنان، دار الكنوز الأدبية، الطبعة الأولى، 1997م.
- 13 - عليّ ابن أبي طالب، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، بيروت- لبنان، دار البلاغة، الطبعة التاسعة، 1425هـ. 2005م.
- 14 - لقصب، مجلة دورية ثقافية أدبية، العدد الحادي عشر، السنة الثالثة، بيروت- لبنان، خريف 1418هـ. 1997م.
- 15 - المتنبي، أبو الطيب، ديوان 1-4 (المسمى بالنبهان في شرح الديوان)، شرح أبي البقاء العكبري و تصحيح الدكتور كمال طالب، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2008م.
- 16 - اليحيى، فرحان، أزمة المواطنة في شعر الجواهري، دمشق، من منشورات إتحاد الكتب العرب، 1421هـ. 2000م.